دفاعا عن المرأة

عصفور، جابر.
دفاعا عن المرأة/ جابر عصفور. ــ القاهرة : دار أخبار اليوم، مارس ٢٠٠٧.
٢٠٠ص؛ ٢٠سم. ــ (سلسلة كتاب اليوم)

عرض
نبيل فرج
كاتب وناقد

لكل فرد من أفراد المجتمع موقفه الخاص من المرأة. ويعتبر هذا الموقف مقياسا دقيقا لشخصية نستطيع أن نتعرف منه على هذه الشخصية، وعلى موقفها من المجتمع وقضاياه: هل هو مع تقاليد الماضى بكل ما يرتبط به من مفاهيم محافظة تسلب المرأة حقوقها، أم هو مع الحاضر والمستقبل، بكل ما يفرضه من قيم عصرية جديدة، تحتل فيها المرأة مكانتها بصورة عادلة ؟ هل هو مع الدولة الدينية التى تحكمها الرؤية الأحادية، ولا تقبل حواراً أو اجتهادا من أحد، أم هو مع الدولة المدنية التى تخضع للقوانين الوضعية والمواثيق الدولية العامة وترعى فيها كل المعتقدات والحريات بلا تمييز.

ويتفرع عن هذا العديد من المبادئ والأفكار: هل تعتبر مصر والأقطار العربية، فى نظر هذه الشخصية، جزءاً من العالم المتقدم، أم أن لها خصوصية تجعلها فى عزلة، منكفئة على ذاتها تخرج عن المعايير العامة المتصلة بالحريات المدنية وحقوق الإنسان ؟

ذلك أن الموقف من المرأة يلخص ويفحص عن كل هذه الأبعاد وغيرها كثير.

وتاريخنا الحديث منذ رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣) حافل بالكتاب والمثقفين والمفكرين والسياسيين الذين وقفوا بجانب المرأة، ودافعو عن حقوقها الأدبية والمادية فى إطار دفاعهم عن الدولة المدنية الحديثة، مثلها حفل هذا التاريخ بمن وقفوا ضدها، وحاولوا أن يعيدوا المرأة إلى عصر الحريم، والمجتمع بأسره إلى عصور الظلام.

وللأسف فإن هناك نساء فى الواقع التاريخى، كن يعضدن هذا الاتجاه الظلامى الذى يحط من شأن المرأة، وينظرن إلى بنات جنسهن نظرة متدنية، ربما أكثر تدنيا غلاة السلفيين الرجال، الذين ينتمون

فكريا لعصور الجهود والاستبداد التى فاضت بالخرافات والظلم والشعوذة .

ولكن هناك أيضا من النساء من رفضن أن يكن مليين أكثر من الملك، واخترقن المحظورات، ودافعن عن النساء كهؤلاء الرجال الشجعان الذين دافعوا عنها سواء بسواء، خاصة فى جيلنا المعاصر.

ومع هذا فإن تيار الاستنارة العقلانية ــ الذى يدعو للعلم والمعرفة، والحرية، والديمقراطية، والعدل، والإنصاف، والتسامح، والمواطنة التى تتساوى فيها حقوق المرأة والرجل، والأقليات والأغلبية ــ كان دائما حاضراً فى الساحة، مهما ادلهمت الأجواء من حولها، وانتشر القبح، وغابت الحكمة.

وكل ما نتطلع إليه أن يتسع هذا المجال، مجال الوعى والعدل والنصفة، فى كل الأقطار العربية بارتقاء مستوى التعليم والثقافة والمشاركة السياسية للمرأة والمهمشين وأن ينحسر القبح والظلم والتعصب، وأن تخف قبضة السلطات التى تحمى هذه الدعوات المناقضة للفطرة السليمة حفظا لمصالحها الآنية، التى يعد التقوقع والطائفية والنقل والارهاب من وجوهها، وليس فقط العداء للمرأة.

ومن الكُتاب أصحاب الوعى المتقد بقضية المرأة، الذين كرسوا جزءآ كبيرا من أعمالهم دفاعا عنها وعن الاستنارة، الدكتور جابر عصفور، الناقد الأدبى، والأستاذ الجامعى، وأمين عام المجلس الأعلى للثقافة أربعة عشر عاما، يعترف فيها القاصى والدانى بما قدمه للثقافة والمثقفين فى هذا الموقع من خدمات تجلت فى كثير من الفعاليات والأنشطة والنشر والترجمة، ما كان يمكن أن تتحقق لولا وجوده.

وجابر عصفور هو ابن التراث العربى القديم، والنهضة المصرية الحديثة، والتيارات النقدية المعاصرة .. ومن المؤثرات أيضا التى شاركت فى تشكيله الرحلات العلمية إلى بعض البلاد العربية والأجنبية التى أتاحت له أن يقتنى أحدث الكتب وأندرها، وأن يتعرف على أحدث الأفكار.

لم تعزله الجامعة عن الحياة الأدبية والمجتمع ولم تصرفه الحياة أو يصرفه المجتمع عن الأستاذية الجامعية التى يفخر بها أكثر من فخره بدوره لناقد محترف.

وبفضل هذا التكوين استطاع جابر عصفور أن يختار مكانه تلقائيا فى صف التقدم، وأن يضع فى المجلس الأعلى للثقافة آليات جديدة للعمل الثقافى ينتقل بها من السكون إلى الحركة.

كما أتاح له هذا التكوين أن يخاطب بمقالاته وكتبه القاعدة العريضة من القراء مثلما يخاطب بدروسه وأبحاثه طلابه فى مدرجات الجامعة.

ولولا وعى جابر عصفور بالقيم التاريخية والفنية الخلاقة التى ينبغى أن تسود، ونفوره فى الوقت نفسه من كل ما يتناقض مع التطور والتقدم العالمى لما كان لنا هذا الناقد الذى لا يفصل بين الفن والحياة أو بين الفن والإنسان، ويعرف كيف يفيد من الحداثة فى قراء النصوص كإنجاز أدبى له خصوصيته، دون أن ينأى عن الاتجاهات المتنوعة فى الأدب والنقد فى تاريخنا الحديث، التى صاغت أنساقه العربية التى

ترتبط فيها الرؤية الاجتماعية بالأبعاد الجمالية، والمقياس الأدبى بالمقاييس العالمية.

وتؤلف الكلمات المقروءة والمرتجلة التى ألقاها جابر عصفور فى افتتاح مؤتمرات وندوات ومهرجانات المجلس الأعلى للثقافة، كما تؤلف كتبه التى يعاد طبع الكثير منها سجلاً للحياة الثقافية تعكس فى عمق وبساطة الجمهور التى بذلت للنهوض بالثقافة القومية بعد الانسكار الذى تعرضت له فى العام السابع والستين، خاصة فى مرحلة السادات، وظلت ظواهره قائمة سنوات طويلة بعد رحيله.

وكلمات جابر عصفور فى افتتاحيات هذه المناسبات كلمات باحث وناقد متمكن، يتحدث فيها عن الموضوع، ويتطرق إلى الحديث عن نفسه. وكثير مما كان يبوح به، فى هذا الموقف، ليس معروفا لأحد قبل أن يصدر كتابه الأخير "من هناك" (كتاب الهلال، إبريل ٢٠٠٧) الذى يضم مجموعة من المقالات عن سيرته أثناء إقامته فى أمريكا أستاذا زائرا فى جامعة هارفرد.

وكتاب جابر عصفور "دفاعا عن المرأة"، كمعظم كتبه، مجموعة مقالات نشرت فى الدوريات الصحفية ولهذا خلت من الهوامش والمراجع يواجه فيها الكاتب مشكلة المرأة، كما واجه فى مقالات أخرى ــ جمعت فى كتب أخرى ــ الجماعات الإسلامية، والتطرف، والدولة التسلطية، والتمييز العنصرى أو العرقى، دفاعا عن دولة القانون وحقوق الإنسان، والاستنارة التى تتطلع لتخليص المجتمع من الضرورة حتى يعيش فى الحرية.

وعبر ما يزيد عن ثلاثين مقالة عن المرأة فى التراث العربى وفى تاريخنا الحديث والمعاصر، تناول جابر عصفور وضع المرأة فى ضوء الشريعة الإسلامية السمحة التى منحتها، بحسب الفهم الصحيح للإسلام، حق الحياة الكريمة كإنسان فاعل فى المجتمع له شخصية مستقلة تشغل أرفع المناصب، وتساهم فى إثراء التراث العربى شعره ونثره.

وكما وجد فى الماضى البعيد من المتزمتين وأصحاب التأويلات الجامدة من اعتبروا أن كل حديث عن المرأة حرام، فقد وجد أيضاً فى كل العصور من العلماء والكتاب الذين ألغوا فى الموضوعات الدينية البحتة من كانوا يضيقون بهم وبتزمتهم.

ويعتبر الجاحظ، وابن قتيبة، والمبرد فى القرن الثالث الهجرى من هؤلاء الأعلام الذين خرجوا على هذه الحدود، دون أن يتعرضوا لتحريم أو سخط أحد.

ويذكر جابر عصفور ما فى كتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة من أقوال صريحة عن النساء والجنس لا تعرف الخجل، خاصة فى فصله الأخير، مؤكداً للقراء أنه ليس فى ذكر الأعضاء الجنسية فى موضعها أى إثم يتناقض مع التقوى ؛ إنما الإثم فى نظر ابن قتيبة هو الشتم والكذب والغيبة والرياء.

وابن قتيبة، كما هو معروف من الحنابلة الذين يعدون فى عصرهم من أهل السلف، وهم غلاة فى التشدد.

والمفارقة التى يعبر عنها جابر عصفور أن مثل هذه الصفحات من الملح والمجون التى يوردها العلماء

دفاعا عن المرأة ـــ

القدماء تثبت أنهم كانوا أكثر سماحة مما غدونا عليه فى هذا العصر، كما كان رفاعة رافع الطهطاوى فى فصل "زوج مستنير" من كتاب جابر عصفور، أكثر استنارة من رجال عصرنا، بتنازله فى عقد زواجه من ابنة خاله ، الذى كتبه بخط يده، عن حق الزواج عليها، أو حق اقتناء الجوارى وهو ما أحله الشرع، ومنحها فى هذا التعهد حق الطلاق منه إذا أخل به.

وبتأثير هذه النزعة الإنسانية فى فكر رفاعة رافع الطهطاوى، التى تجاوبت مع نزعته العقلانية، فصل رفاعة بين العفة والحجاب، أو بين سلوك المرأة وزيها ذلك أن العفة مسألة داخلية تتوقف على العقل أو على التكوين الفكرى والنفسى، لا على تغطية الرأس والوجه.

على أن أغلب ما يروى فى الكتب عن النساء من المرويات الشعبية، كما يلاحظ جابر عصفور يجنح إلى سوء الظن بهن، إن لم يكن العداء السافر لهن، والحظ من قدرهن.

ومن هذه المرويات التى تقدم صورا شائهة للمرأة رد كل ما تعانيه من شدة النفاس والحيض ونقص العقل والدين والضعف والغواية إلى عقاب الله لها.

وتتفق الأشعار الهجائية للمرأة مع هذه المرويات فى تنديده بنكد الزوجات وحمقهن، وفى تمنيها الخلاص من سجنهن وعذابهن.

ويرى جابر عصفور أن هذه الآراء المشينة عن المرأة فى الحضارة الإنسانية لم تكن تقوى إلا فى عصور الضعف والهزيمة، وتخفت وتقل فى عصور القوة والازدهار التى تقرأ فى الشرائع أعلى درجات التكريم للمرأة، لي لها سبق فى التاريخ الإنسانى.

لهذا يرفض جابر عصفور الكثير من الروايات والنوادر عن الصحابة وغيرهم، تلك التى تذم المرأة، وتتعامل معها بغير ما يليق بها وبغير ما هى مؤهلة له. وفى تقديره أن ولاء هذه الأكاذيب الباطلة التى تستغل المرأة وتسلب حقوقها خروج على الشريعة الإسلامية التى لا تميز بين المرأة والرجل فى أداء الواجبات الدينية، وفى حق التصرف فى ثروتها كالرجل، وخلع زوجها إذا ضاقت ذرعاً بالحياة معه.

ويفيض التراث العربى بكتب حافلة بأسماء شاعرات، وكاتبات، ومغنيات، ومتصوفات، وفقيهات كان لهن شأن عظيم، فضلا عما عبرت عنه شهرزاد والجارية تودد فى "ألف ليلة وليلة" من معرفة بعلوم العرب والحجم، لم يحسن مثلها فى قصص "ألف ليلة وليلة" أحد من الرجال.

ويلفت النظر فى كتاب جابر عصفور إحاطته بعناوين الكتب وأسماء المؤلفين قديما، وحديث الذين كتبوا عن الأدوات التى قامت بها المرأة فى الحضارة الإسلامية وفى المسيرة العربية الحديثة للتحرر والاستنارة، منذ الغزو الفرنسى على مصر فى ١٧٩٨ وما قامت به المرأة من مشاركة الرجل فى مقاومة الغزو فى مدن الإسكندرية، والمنصورة، ورشيد، وفى قرى مصر كلها، بما يدل على يقظة وطنية للمرأة لا تقل عن يقظة الرجال الوطنيين الذين قادوا المقاومة الشعبية ضد الغزو والفرنسى

وضد ولاة الجور من المماليك فى العهد العثمانى، قبل استقلال مصر عن تركيا.

ومع إدراك جابر عصفور لدور قاسم أمين ولكتابيه "تحرير المرأة" و"المرأة الجديدة" فى تحرير المرأة، فإنه يعتبر أن البداية الفعلية لهذا التحرير كان ثورة ١٩١٩، أى بعد عقدين من صدور كتابى قاسم أمين، لأنها لم تقتصر على ميدان دون الآخر وإنما شملت الميادين الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، التى مكنت المرأة من تحطيم القيود المتوارثة وفى مقدمتها الحجاب والامتزاج بالحياة العامة.

ولكن من المؤكد أن قاسم أمين — كما يقول جابر عصفور — كان الممهد لهذه الثورة بما طرح من أفكار عن عدم تعارض الدين الإسلامي مع تقدم المرأة وتحضرها، موضحا أن الباب الأول لهذا التقدم التعليم، وعدم القياس على الماضى، وإنما يكون القياس الصحيح فى هذه القضايا على الحاضر، وإدراك أن تحرير المرأة لا ينفصل عن تحرير الرجل والمجتمع.

ولأنه مضى على كتابى قاسم أمين أكثر من مائة عام، فإن جابر عصفور يرفض الوقوف عندما تحقق فى هذا التاريخ، لأن هناك مشاريع عديدة للنهضة ظهرت بعد قاسم أمين، فى ظل شروط زمنية وعلاقات اجتماعية مختلفة، انتهت فيها العزلة والإيقاع البطئ للحياة والتطور، وهذا ما يفرض مراجعة الماضي وتجاوزه.

ويتصل ببدايات هذه النهضة الخاصة بتحرير المرأة المحاضرة الأولى التى ألقتها فى الجامعة الأهلية الناشئة مود مازيل كليمان الفرنسية على النساء قبل ثورة ١٩١٩ عن المرأة الشرقية والغربية تحت إشراف هدى شعراوى التى قامت بتنظيم هذه المحاضرة، ونجحت فى أن تجعل الأميرة عين الحياة أحمد تقبل رئاسة اجتماع المحاضرة مما أضفى عليها قيمة عالية، كان من الضرورة توفرها فى هذا الزمن المبكر، وفى هذا الوسط.

وقد أدى نجاح هذه المحاضرة إلى موافقة رئيس مجلس إدارة هذه الجامعة الأمير أحمد فؤاد (الملك أحمد فؤاد فيما بعد) على إلقاء سلسلة من المحاضرات بالجامعة على السيدات، اختير لها أيام الجمعة حتى لا يزاحم النساء أحد من طلاب الجامعة.

ولاشك أن هذه المحاضرات هيأت الظروف بعد ذلك لالتحاق المرأة بالجامعة. وبعد هذا الالتحاق أحد العوامل الأساسية التى أدت إلى إصلاح أحوال المرأة بالقياس إلى ما كانت عليه قبلها.

ومن أجمل فصول الكتاب ما كتبه جابر عصفور عن أستاذته سهير القلماوى التى تعلم منها الكثير من الدروس فى البحث العلمى خلال إشرافها على أطروحته للماجستير، ثم للدكتوراه. وكانت سهير القلماوى بالنسبة له فى الوقت نفسه — على شدتها العلمية — بمثابة الأم التى يستشيرها فى أخص خصوصيات حياته، مثل الزواج من زميلته.

ويذكر جابر عصفور أن ما جذبه إلى سهير القلماوى تفتحها الاجتماعى وثقافتها الموسوعية، وإتقانها للغة أجنبية، وإيمانها بالانتماء العربى والانتماء الإنسانى فى آن واحد.

دفاعا عن المرأة ـــ
ويعترف جابر عصفور بأنه يدين لسهير القلماوى بإدراكه الصحيح لمعنى أستاذية الأستاذ الجامعى، واحترامها لحق الاختلاف ولو كان المختلف معها تلميذا من تلاميذها لأنه لا أحد يمتلك الحقيقة الكاملة كما يدين لها بإدراكه الدقيق لكفاءة المرأة، ولشجاعتها فى الدفاع عن حقوقها المهدرة.

ومن أهم صفحات الكتاب أيضا مقالة عن الكاتبتين الكويتيتين ليلى العثمانى وعالية شعيب اللتين أدينتا من المحكمة الكلية فى بلادهما بالإساءة إلى الدين والأخلاق، وحكم عليهما بالسجن شهرين وغرامة مالية لوقف تنفيذ الحكم.

ويبدى جابر عصفور أسفة وحزنه على صدور هذا الحكم الذى يصيب كل الكاتبات والكتاب بالمهامات التفكير التى أخذت تتزايد فى خطاب الجماعات المتعصبة التى تحتكر معرفة الدين، وتتهم ـــ مع فقهاء السلطة ـــ من تشاء بالخروج عليه وعلى الأخلاق، بلا علم حق أو معرفة حقة.

وعلى نحو ما يعتبر جابر عصفور أن ما يصيب الكاتبتين الكويتيتين يصيب كل الكتاب والكاتبات، يعتبر فى فصله التالى عن الكاتبة الفلسطينية ليانه بدر أن ما تفعله إسرائيل بالشعب الفلسطينى وقائده ياسر عرفات منذ سنوات ماضية، بوضعهم فى سجن كبير، يضع كل العرب وحكوماتهم العاجزة فى الآن نفسه فى مثل هذا السجن.

والمهامات الكاتبات والكتاب على هذا الشكل الذى تعرضت له الكاتبتين الكويتيتين، وعانت مثله مصر، ولبنان، والبحرين وغيرها لردع الخصوم السياسيين يساعد عليه بالطبع الثقافة العامة السائدة فى المجتمع، ثقافة النقل والتقليد التى ينتفى فيها التعدد والاختلاف والتنوع الذى تقوم عليه الدولة المدنية. ولا يُسْفِرْ هذا النفى إلا عن وأد الإبداع العربى لأنه لا إبداع بلا حرية.

وتستعين هذه الاتهامات التى تذكرنا بمحاكم التفتيش بالتأويل المتعسف للنصوص، وتحويل المعنى المجازى إلى معنى حقيقى، وبانتزاع الجمل من سياقها الذى يحدد معناها، واتخاذ النص المستقل عن الواقع دليلا عليه على غير ما تقرره المبادئ النقدية التى تدين قراءة الأعمال الأدبية قراءة بوليسية ـــ إن صح التعبير ـــ مخالفة لطبيعتها الأدبية، ولمنطق الفن والإبداع.

وينتهى كتاب جابر عصفور بفصل عن الحب الأول فى رواية إحسان عبد القدوس "الوسادة الخالية"، يسبقه فصل عن "الحب فى زمن الإنترنت" الذى يولد فيه الحب متسارعا عبر مخترعات العالم الحديث، فى عصر ما بعد الصناعة، على شاشات الكمبيوتر، من خلال البريد الإلكترونى، رغم بعد المسافات واختلاف الزمان بعد أن كان هذا الحب واقعا ملموسا بسيطا لا تعقيد فيه يخضع لترتيب النظرة فالابتسامة فالسلام فالكلام فالموعد فاللقاء كما كان فى عهد أمير الشعراء أحمد شوقى.

وليس فى الكتاب ما يمكن أن يؤخذ عليه سوى تكرار الحديث عن بعض الأحداث مما كان يستعين حذفه عند جمعه من الدوريات الصحفية المختلفة بين دفتى كتاب، خاصة وأن بعض فصوله تترابط مع بعضها، أو يتم ربطها بعضها ببعض...